مجلة المجمع العلمي العربي

الجزء الثامن — آب سنة ١٩٤١ — شعبان سنة ١٣٦٠

قصر الحير

اكتشاف القصر

في البادية الشامية — على بعد (٦٤) كيلو متراً من تدمر لمن يقصد دمشق عن طريق القريتين — اكمة تجد في زاويتها الشمالية الغربية بقية برج بزنطي مربع شاهق وهو آخر ما رممه المسلمون سنة ٥٨٣ هـ . على ما تشير الى ذلك الكتابة المزبورة في مدخل هذا البرج .

ذكر هذا البرجَ المعروف بقصر الحير والانقاض المبعثرة بجواره اكثر من بحثوا في تدمر وعمرانها واتساع سلطانها زاعمين ان تحت الاكمة انقاض حصن روماني مستنتجين ذلك من عتبة باب مزخرفة كانت ظاهرة في وسط سفح هذه الاكمة الشرقية نقوشها رومانية من عهد خرائب تدمر . وايدت الرسوم الجوية التي التقطت فيما بعد صلة هذا البناء وماجاوره بسد خربقة الروماني الذي يبعد عنه نحو (١٥) كيلو متراً الى الجنوب ومنه كانت تستمد هذه المنطقة حاجتها من الماء بواسطة قناة مكشوفة يستقي منها السكان وتسقي الحدائق والمزروعات التي كانت محدقة بالقصر . ولقد كادت تصبح هذه المزاعم عقيدة مسلماً بها لولا الحفريات التي قامت بها مصلحة الآثار في عام ١٩٣٦ باشراف أحد مفتشيها المسيو شلونبرجه لاظهار العتبة الآنفة الذكر والباب الذي تظلله . ولم يمض أيام على مباشرة العمل حتى كشف الباب بكامله بنقوشه البديعة وظهر بين الانقاض التي كانت تغمره كسر زخارف من الجص

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يمت بعضها بصلة للفن البزنطي الهيليني وبعضها للفن الساساني ، ومنها ماهو مزيج من الفنين معاً . ولم يستنكر اجتماع كل ذلك في صعيد واحد وسورية ملتقى الحضارات . وشاع ذلك فيها في أواخر العهد الروماني لا سيما على مقربة من حدودها الشرقية التي كان لمدنها صلة وثيقة ببلاد ما بين النهرين . ولكن تقدم الحفريات وزيادة المكتشفات أوحت للقائم بها بفكرة جديدة وافقه عليها الاخصائيون وأيدتها نتائج الاعمال والابحاث : اتضح أن البرج القائم هو بناء بزنطي وتحت الاكمه أنقاض قصر أموي .

القصر

بناء مربع الشكل (طول ضلعه الشرقي ٧١٫٤٥ م والغربي ٧٣٫٠٥ م والشمالي ٧٠٫٤٥ م والجنوبي ٧١٫٠٥ م) بني جداره الخارجي من حجر نحيت بارتفاع مترين والباقي من اللبن والآجر وشيد في كل من اركانه برج مستدير ما خلا الركن الرابع اي الزاوية الشمالية الغربية فانها احتفظت بالبرج البزنطي الآنف الذكر ودعم وسط كل من اضلاع القصر بدعامة نصف مستديرة وحكم مدخل القصر في منتصف الضلع الشرقي بين دعامتين نصف مستديرتين . ينفذ من الباب الى مدخل مسقوف على جانبيه مساطب ومنه الى باحة رحبة مرصوفة يطوف بها رواق قائم على (٣٢) عموداً مشيدة من حجر لم ينحت يكسوها الجص ويضاف اليها اربع دعامات مربعة قائمة في زوايا هذا الرواق ، وبني خلفه صفان من بيوت سكن وغيرها من المرافق البالغ عددها ستين ونيفاً وعثر على بقايا ادراج وانقاض يستدل منها بأنه كان للقصر اكثر من طبقة واحدة يؤيد ذلك ماجمع من أنقاض واجهة مدخل القصر وزخارفها البالغ ارتفاعها نحو (١٥) متراً وللقصر صهاريج ماء ومراحيض ومجاري وبجواره حمام واسع على نسق حمامات دمشق وترتيبها وعلى هذا يشتمل على جميع اسباب الراحة وروعيت فيه كل الشروط الصحية المنزلية . وبهذا ندرك مدى رقي الفن المعماري في العصر الأموي وازدهاره في الحضر والبادية . وانه ليتعذر علينا في هذه العجالة التوسع في وصف هذا القصر وملحقاته وطرق الري اذ كل ناحية منها تتطلب بحثاً خاصاً يفرد لكل منها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

زخارف القصر

لا يتأتى لمن يشاهد القصر بحالته الحاضرة بعد ان كشفته الحفريات للعيان أن يصور فكرة صحيحة عن عظمته ابان ازدهاره . فهو اليوم بناء رحب جردته صروف الحدثان من كل المعالم التي تدل على نسبه العريق ومجده الغابر حتى أصبح أشبه بحصن تأوي اليه الجنود منه بقصر خليفة خضعت لسلطانه رقاب أمم وملوك .

ولم يصل الينا من ماضيه المجيد الا ما التقط بين الانقاض من كسر الزخارف التي كانت تزين القصر وقد زاد عددها على (٤٠٩٠٠٠) قطعة لا يتجاوز حجم اكبرها عشرات السنتمترات . كان منها بعد بذل جهود عظيمة تصوير القصر في صورته الأولى . وقد صنعت هذه الزخارف من الجص لتكسو بعض الجدران من الداخل والخارج وتزين نوافذه وقناطره وتفنن الصناع بتنويع أشكالها فمنها النباتية والهندسية وذوات الأرواح من أشخاص وحيوانات جاءت بمجموعها في غاية الابداع والإحكام وحسن التناظر والتناسق منها تمثال امرأتين كانتا فوق مدخل القصر احداهما جالسة والثانية مستلقية على ظهرها تشبه صنعتها التماثيل التدمرية المعروفة وكأنهما نقلتا عن صورة الجاريتين اللتين مر بهما اوس بن ثعلبة التيمي فاستحسنهما وأنشد فيهما :

فتاتي أهل تدمر خبراني ألما تسأما طول القيام
قيامكما على غير الحشايا على جبل أصم من الرخام

وفيهما قال أيضاً ابو دلف :

ما صورتان بتدمر قد راعتا أهل الحجى وجماعة العشاق
غبرا على طول الزمان ومرّه لم يسأما من ألفة وعناق

وعثر أيضاً على بقايا أنواع من الرخام والمرمر والفصوص الملونة والاخشاب المنقوشة والمصبوغة والمذهبة يستدل منها — وان لم يعرف كنهها — على تنوع زخارف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا القصر والعناية بزينته خصوصاً اذا أضفنا اليها ما اكتشف من الزخارف المصورة والملونة التي كانت مرسومة على جدران بعض غرف القصر وارضها ومن أعظمها ما عثر عليه داخل غرفتين منها رصفت ارضها بالجص المصور تمثل الاولى سماوة امرأة تحمل بين ذراعيها سلة فيها أثمار وقد التف حول عنقها ثعبان وفوقها صورة (قنطورسين) بهيئة رجلين نصفهما الاسفل بشكل ثعبان له مخالب سبع ورسم في أرض الغرفة الثانية مرزبان على جواده يطارد غزلاناً يرميها بالسهام ، وصورة قينتين الأولى تنفخ بمزمار والثانية تضرب بمرهب الخشب على عود ذي خمسة اوتار وهذا ينفي ما نسب لزرياب مولى المهدي العباسي ورئيس المغنين [1] أنه هو أول من زاد الوتر الخامس في العود وهذا الرسم يثبت أن الوتر الخامس كان موجوداً قبل وفاة زرياب بـ (١٢١) سنة . وحجم هذه الصورة يعادل حجم الانسان ويزيد عنه في بعضها وهي متقنة الصنع زاهية الألوان ساذجة الخطوط طبيعية الحركات رشيقة لا تكلف فيها ولا اجهاد تدل على مهارة الصانع وسمو مواهبه الفنية .

وقد استجلب للقصر من انقاض بناء قديم دعامتا باب المدخل وعتبته وهما تحاكيان بعظمة نحتها وجمال زخارفها ما يعثر عليه من أنقاض خرائب تدمر الرومانية .

تاريخه

سبق لنا القول بأنه عثر في القصر وجواره على بعض انقاض غير اسلامية ، وعلاوة على ما أقحم منها في البناء كالبرج ومواد بناء الباب فقد عثر في المدخل على عتبة عليها كتابة يونانية من القرن السادس للميلاد جاء فيها ذكر الحارث بن جبلة الغساني وهنالك مظاهر غيرها عديدة تدل على مصانع رومانية وبزنطية قديمة قام هذا القصر البديع على أطلالها . ثم ان المكان معروف قبل العهد الاسلامي وهو أحد المراحل بين نزالا (القريتين) وتدمر وقد جاء ذكره في تقويم بوتنجر (Peutinger) باسم هلياراميا (Heliaramia) وربما كان اسم الحير الذي

(١) نفح الطيب الجزء الثاني ص ١١١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عرفت به [١] هذه المنطقة محرفاً عنه . واما القصر الذي نحن بصدده فلا نشك في عصره ونسبه اذ وقع الباحثون فيه وفي جواره على ما يؤيد تاريخه واهمها الكتابة الكوفية التي وجدت على عتبة البناء المعروف بقصر الملح المجاور له وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله وحده لا شريك له . امر بصنعة هذا العمل عبد الله هشام امير المؤمنين أوجب الله أجره . عمل على يدي ثابت بن أبي ثابت في رجب سنة تسع ومائة . »

وعثر ايضاً في الانقاض داخل القصر على قطع من اللخاف وهي لوحات صغيرة من المرمر الابيض كان يكتب عليها في صدر الاسلام وهي الوحيدة المعروفة من نوعها فقرأنا على احداها ما يأتي :

« بسم الله من هشام امير المؤمنين الى الوليد ابي العباس احمد الله اليك ... »

وكتب على أخرى الحروف الهجائية بالترتيب الآتي .

« ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ط ظ ص ض ع غ ف ق ك ل م و ن ه لا ي » وهو ضرب مفرد ثالث لترتيب الحروف لم يتصل بنا عمله وغير معروف عند اهل المشرق ولا المغرب [٢] .

واذا اضفنا الى ما تقدم دراسة القصر من ناحيته الهندسية والمقابلة بينه وبين غيره من القصور الأُموية المعروفة المعاصرة له ، كقصر الحير الشرقي في سورية وقصور خرانة والتوبة والمشتى وعمرة في الشرق العربي وخربتي منية والمفجر في فلسطين تضافرت جميعها على تأييد نسبة هذا القصر للعصر الأُموي وليس ما يمنعنا من نسبة بنائه الى هشام بن عبد الملك ، ولعل هذا الموضع هو الزيتونة حيث الخلافة أتت هشاماً وهو يتبدى فيها ، وهذا قبل ان يحدث الرصافة [٣] .

(١) R. Dussaud - Topographie historique de la Syrie antique et médiévale. ص ٢٦٤ و ٢٦٥

(٢) صبح الأعشى الجزء الثالث ص ٢٢

(٣) فتوح البلدان ص ١٨٤ الطبري الجزء الثامن ص ١٨٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قيمة القصر التاريخية والعلمية

لاكتشاف هذا القصر شأن عظيم في تاريخنا القومي ، واعظم من ذلك فائدته العلمية العالمية لمعرفة تسلسل الفنون الشرقية وتطورها . وقد بعث هذا الأثر ، بعد أن دُفن نحواً من اثني عشر قرناً ، وبعث معه ماضياً مجيداً حافلاً بكل طريف فاق كل ما كنا نتوقعه منه وكل ما كنا نعرفه عن نشأة الفن الاسلامي وتطوره السريع جاء نوراً ساطعاً وبرهاناً صادقاً أسكت ألسن الخراصين الذين كانوا يزعمون أن الاسلام قد قضى على الفن في المشرق وان العرب في الأندلس لم يتذوقوا الفنون الجميلة الا بفضل تشويق البيئة الغريبة عنهم ومنها نشأت نهضتهم الفنية وترعرعت .

ولم تكن دعوى هؤلاء باطلة يومئذ لأن الفن الاسلامي والاصح العربي لم يتصل بنا خبره الا بما خلفه لنا العرب في الاندلس وبلاد فارس حيث وجدناه في أقصى مراحل الكمال والابداع . لم يتصل بنا قبل اكتشاف قصر الحير الا النزر اليسير من الفن الأموي في مصانع اسلامية محضة اللهم الا ما خلفه لنا الزمن في قبة الصخرة في بيت المقدس والجامع الأموي بدمشق وذلك في نطاق ضيق لا يساعد وحده على دراسة نشأة الفن الأموي وتطوره . ولذلك ضن بعض المستشرقين على العرب ان يكون قصر المشتى [1] المشهور وغيره قد بني في عهدهم وأنكروا أن يكون مثل هذا العمل من صنعهم . وأنى للعرب أن يأتوا بمثله وهم بزعمهم حديثو العهد بالحضارة ولوازمها ، وهم امة لم تمارس الفنون من قبل .

لم ينشأ هذا الخطأ من قلة الوثائق فقط بل سببه جهل بعض علماء المشرقيات حقيقة الاسلام ومدى ما أتى به من تعاليم رفعت المستوى العقلي عند العرب الى درجة كبرى ، ورسمت للحياة مثلها العليا فأحدثت تطوراً جديداً في بلاد مترامية الاطراف لا وحدة بينها وتحقق ذلك بسرعة خاطفة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً .

ظهر الاسلام وليس للعرب ما يحملونه للبلاد التي فتحوها بقوة إيمانهم وشدة

(١) J. Strzygowski - L'ancien art Chrietien de Syrie p. 129.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بأسهم سوى دينهم القويم وشريعتهم السمحة فكانوا خير عامل لحفظ حضارة البلاد التي سيطروا عليها من الاضمحلال فنقلوا تلك المدنية برمتها الى السلف بعد ان هذبوها وصقلوها وازدهرت في عهدهم ونمت وهكذا اتصل عصرنا الحديث بالثقافة الاغريقية وعلومها وفنونها . واجمع العلماء على ان العرب قد نقلوا لنا علوم اليونان وفلسفتهم ولكن قلّ من فكر منهم بأن العرب قد واصلوا الفن المعماري الهلليني (اليوناني) ، وزخارفه الشائع في بلاد الشام قبيل الفتح الاسلامي .

ان قصر الحير برهان جديد لا يقبل الجدل يجد الباحث فيه الحلقة المفقودة التي تربط الفن الهلليني بالفن الاسلامي المألوف ، فنرى الزخارف والاشكال البزنطية ممزوجة بالزخارف الساسانية الفارسية متداخلة بعضها ببعض بشكل يألفه النظر بسرعة ويستحسن هذا المزج الذي انبثق عنه الفن العربي وانتشر في العالم الاسلامي . وأحسن وصف لهذا القصر ما قاله مكتشفه في محاضرة له : « ان هذه الزهرة التي اكتشفناها في واحة قصر الحير نمت وترعرعت تحت سماء الاندلس وأعطت أبدع الأمثلة في غرناطة وقرطبة . ولنا أن نقول ان الفن المغربي وجد أصوله في قصر الحير كما ان الفن الروماني والفن القوطي أخذا عنه فن تنوع القناطر وعلى الاخص « القوس المكسور » الذي احتل في هندسة المعمار في القرون الوسطى مكاناً ممتازاً . فقد كنا نعده ابتكاراً غربياً فظهر ان الغرب أخذه بواسطة اسبانيا عن قصر الحير [1] »

بلغ اللخميون في الحيرة والغسانيون في الشام في المدنية شأواً بعيداً بالنسبة لحالة عرب الجزيرة وذلك لطول اختلاطهم بالفرس والروم وتأثرهم بهاتين المدنيتين كما تشهد بذلك آثارهم . وكان هؤلاء العرب أسبق الناس لانتحال الاسلام فكانوا العامل القوي لتسرب ثقافة الفرس والروم الى المسلمين وانتشارها بينهم .

كان من بين هؤلاء جماعة مارسوا مختلف الصناعات لا سيما البناء [2] والنحت والتصوير ورصف الفسيفساء وزخارف الجص وقد واصلوا مهنهم بعد اسلامهم ، فساهم

(١) مجلة الحديث ١٩٦١ ص ١٤٤ — ١٤٥

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر الجزء الاول ص ٢٠٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعضهم وغيرهم من عمال الفرس والروم [1] في بناء المسجد الاقصى وجامع دمشق وغيرهما من مصانع العصر الأموي فنجم من ذلك مزج الفن الفارسي بالفن اليوناني ودام هذا الحال حتى النصف الاول من القرن الثامن للميلاد ، ازدهر خلالها البناء وزخارفه على اختلاف أنواعه في بلاد الشام . وقد شهدنا الفن العربي بعد هذا التاريخ دخل في طور جديد فعم جميع الاقطار التي فتحها العرب وأصبح فنًا اسلاميًا ذا طابع خاص يعرف به وكيان يتميز به . ولولا الاكتشافات الاثرية الحديثة — ومنها قصر الحير — لضاعت أصوله وضللنا مصادره . وابرز مافي هذا التطور الجديد اهمال تصوير كل ذوات الروح والاقتصار على الخط والزخارف النباتية والهندسية وقد أبدعوا فيها وأتوا بآيات من الجمال .

وانا لا نستغرب هذا الاتجاه الجديد بل نعلق عليه ونشرحه . لأن الاسلام — الذي قضى على الوثنية — قد نهى عن تشبيه المخلوقات فلا عجب أن نفر منه المسلمون واهملوا هذه الناحية . هذه حقيقة كان يصح لنا السكوت عنها لو لم يتسامح المسلمون بالتصوير ويدخلوه دورهم وقصورهم في صدر الاسلام وهو أشد العصور تمسكاً بتعاليم الشريعة المحمدية ولو لم يعودوا اليه فيما بعد في بلاد الشام والاندلس ومصر وفارس وسمرقند بنسب متفاوتة .

فيجب علينا والحالة هذه بحث العامل الحقيقي لهذا الاهمال الذي تواصل نحو قرنين (الثامن والتاسع للميلاد) . وهذه الفترة تتفق مع ماحصل من مثيلها في الدولة البزنطية المجاورة لبلاد الشام حينما اشتد الانكار على الصور واصدرت قانوناً عام ٧٣٠ م حرمت فيه تكريم الصور والتماثيل واقتناءها كما حرمت صنعها واتلفت كل ما كان موجوداً منها في البيع والكنائس وعند افراد الشعب ، مما هو معروف .

ومن رأينا أن هذا الحدث هو العامل غير المباشر الذي قضى على صناعة تصوير المخلوقات ونحتها عند المسلمين وغير المسلمين الذين خضعوا لسلطانهم . ومن المسلم به

(١) الاغاني جزء ٣ ص ٨١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان هذا المذهب قد نشأ بين نصارى بلاد الشام ومصر ومنهم انتقل الى القسطنطينية فدانت به حكومتها وفرضته على شعبها وعلى من كان يخضع لكنيستها حوالي قرنين (الثامن والتاسع م) فلا غرابة ان تشيع لهذا المذهب نصارى بلاد الشام الذين كان منهم البناؤون والمزخرفون والنقاشون والمصورون . وهكذا اهمل المسيحيون النحت والتصوير خلال هذين القرنين ففقدوا بعدهما كل رغبة في هاتين الصناعتين وتحولوا عنهما الى الزخارف النباتية والهندسية التي لاقت عند المسلمين كل ترحيب واقبال لأنها تتفق وتعاليمهم الدينية وتزكي فيهم ما توحي به الميزة البشرية من حب الجمال والزينة . وعليه يكون الحرمان المسيحي هو العامل الحقيقي في القضاء على النحت والتصوير في ديار الشام والحائل دون انتقاله للمسلمين ولولاه لبقي هؤلاء المسيحيون يمارسونها كبقية الصناعات التي ترفع عنها المسلمون في بدء عهدهم كالحدادة والصياغة وصنع الاسلحة فبرعوا فيها الى حد بعيد واقتبسها عنهم المسلمون فيما بعد حتى فاقوا أقرانهم عند مختلف الأمم والديانات وبرهنوا على سلامة ذوقهم ودقة صنعهم .

وكل هذا يحملنا على القول بأنه لو كانت الشريعة الاسلامية هي العامل الحقيقي في نبذ التصوير والنحت لكان أحق بها ان تفعل فعلها وتقضي على غيرها من الكبائر التي كانت ولم تزل شائعة بين كثير من المسلمين والاجماع على التشديد في تحريمها .

هذا هو القصر الذي تعمل الحكومة السورية على اعادة قسم منه لتلحقه بدار الآثار بدمشق وتبذل عنايتها لتحقيقه ليكون في المستقبل خير شاهد تدفع به وصمة طالما عابنا بها العيابون . وسيكون هذا العمل أعظم مشروع تم من نوعه في عصرنا تغبطنا عليه جميع متاحف العالم .

مدير دار الآثار

جعفر الحسني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net